العدد (4111) السنة الخامسة عشرة - الإثنين (15) كانون الثاني 2018
http://www.almadapaper.net Email: info@almadapaper.net

الحضارة وتعّددية الثقافات.. في ظل التأثير والتأثر

د. نجم عبدالله كاظم

ثلاثة مصطلحات بالعربية مقابل اثنين بالإنكليزية تحضر معاً لتلتقي في الدلالات غالباً، وقد تفترق فيما بين بعضها والبعض الآخر، والعربية هي: حضارة، ومدنية، وثقافة، والإنكليزية هي: Civilization و Culture، وإذا كانت الثقافة هي الأفكار النظرية والعقلية وما قد يلحق بها من تاريخ وفكر وأخلاق، والمدنية هي العلوم التجريبية التطبيقية، فإن تعريف الحضارة يكشف التقاءها مع الكثير من ذلك، حين تشمل العلوم النظرية العقلية والتجريبية التطبيقية والممارسات الروحية.

وتوقفاً عند مصطلحَي (ثقافة) و(حضارة) تحديداً، نعتقد أنهما عربياً وإنكليزياً كثيراً ما يتداخلان، وغالباً ما يُطلقان على أمر واحد، وقد يُطلقان على أمرين، نجد بهما (الثقافة) جزءاً من (الحضارة). فهناك من يفرّق بينهما، فيعتبر الثقافة صورة النشاط الروحي والفكري، والحضارة صورة النشاط المادي. وهناك من يجعل الحضارة كلمة جامعة وشاملة للنشاط المادي والثقافي معاً، فيعرّفها بأنها ما تَوصّل إليه مجتمع من المجتمعات في الفنون والآداب والعلوم والعمران والديانات والأخلاقيات. وقد يعبّر آخرون عنها، بما لا يُبعدها عن ذلك، فيرى أنها جميع النشاطات الإنسانيّة، من دنيويّة ودينيّة وروحيّة وماديّة وعقليّة. وهي في كل هذه الرؤى الشاملة تقوم على أربعة عناصر أساسيّة، هي: الاقتصاد أولاً، والنُظم السياسيّة ثانياً، والتقاليد الخُلقيّة ثالثاً، والعلوم والفنون رابعاً وقد ينقسم العنصر الأخير إلى عنصرين. وفعّل البعض الآخر هذه العناصر مع ربطها بالزمان والمكان، فرآها في حالة المجتمع الإنساني حين يدخل في حالة منظمة من التطور الثقافي، والاجتماعي، والعلمي، والمدني، وغيرها من مجالات تطور الحياة المختلفة، وكل ذلك في مكان معين، وفي فترة زمنيّة معيّنة، بتعبير آخر هي جملة مظاهر الرُقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في مجتمع أو مجتمعات متشابهة.

وإذا ما ذهبنا، من ذلك كله، مع التفريق ما بين الحضارة، والثقافة، ونحن نفعل ذلك، فإن الثقافة تبقى أحد مكوّنات الحضارة. ولهذا قيل إن ثقافة أي شعب هي ركن أساس من أركان حضارته، والثقافات في كل العصور هي التي تعكس ملامح الوجوه الحضارية المتعددة بل هي تُسهم بصياغتها. بقي أن نقول، تعلّقاً بهذه الفهوم العديدة، إذا كانت الحضارة قديماً تعكس ثقافة كل شعب وخصوصيته، وبالتالي امتلاكها لوجه واحد إلى حد كبير، فإنها ما عادت كذلك، فصارت ذات وجوه متعددة تبعاً للمكوّن الثقافي فيها، حين صار هذا المكوّن متعدداً أو تعددياً، في ظل تلاقي الثقافات وفي النتيجة تعددية أشكالها لدى كل شعب من الشعوب. وما عاد من الممكن لشعب أن يصنع حضارة، بدون التلاقح مع الآخرين ثقافياً، أعني بدون حضور آخرين وثقافات آخرين.. وكل ذلك إنما يتحقق لا من هذا التلاقي في حد ذاته بل مما يصاحبه بالضرورة، نعني التأثير والتأثر الذي يعني بدوره، وتحديداً حين يكون عاماً وعلى مستوى الأمم والشعوب، مثاقفة، وهي الظاهرة أو العملية التي تطورت وتعددت تسمياتها عبر الزمن من حوار حضارات وصراع حضارات وغير ذلك. من هنا تأتي أهمية التأثير والتأثر في في تكوّننا نحن البشر وتحضّرنا، وتبعاً لذلك تأتي أهمية دراسة هذه الظاهرة، وهو ما يقوم به الأدب المقارن، خصوصاً وفق المدرسة الفرنسية.

ولكن هنا من السهولة للمتتبع أن يرصد خلطاً وسوء فهم لهذه الظاهرة في الأدب والإبداع عموماً وللقول بهما في النقد، وهو الخلط أو سوء الفهم الذي يمكن تصنيفه كظاهرة في وجهين: هو في الوجه الأول انعكاس لما نسميها حساسية المبدع إزاء القول بتأثره بغيره، التي قد تصل إلى الرد عليه بانفعال وعصبية أحياناً، وربما بإثارة صخب. أما الوجه الثاني فهو الفهم الخاطئ، ولا نبالغ إذا ما قلنا الساذج أحياناً، لما يعنيه التأثير والتأثر، والجهل الذي يبدو أحياناً كبيراً بالأدب المقارن بشكل عام، وهو ما قاد نقاداً وأدباء إلى أن يفهموا القول بتأثر أديب بآخر على أنه سرقة، وقاد آخرين إلى أن يروا فعلاً التأثر الواقع في نصوص أو مؤلفات كاتب ما على أنه سرقة، وعليه فإن تلك النصوص والمؤلفات تفقد، في رأيهم الخاطئ، أصالتها أو جودتها. وقاد هذا الفهم فريقاً ثالثاً إلى الربط بين أي تشابهين في عملين أو في أعمال لأديبين على أنه اقتباس أو ربما سرقة، في وقت قد لا يكون فيه حتى تأثراً.

ونعود إلى ظاهرة التأثير والتأثر، ولكن بمعزل عن الفهم الخاطئ هذه المرة، لنقول إن أي أدب قومي، كما هو شأن أي قومية وأي مجتمع بل أي فرد، لا يمكن أن يعيش وينمو ويتطور بمعزل عن الآداب القومية الأخرى. إن أمر التأثير والتأثر واقع لا محال على مستوى الآداب القومية عموماً، ومنها الأدب العربي الحديث، وعلى مستوى الأدباء والأعمال. كما ليس من كاتب في أي أدب قومي، وضمن أي فن أدبي بمنجى من ذلك، بل هو أمر لا مفر منه للوصول والتطور. وهذا هو أحد مستويات التلاقح الثقافي ما بين الأمم والشعوب وآدابها وثقافتها. وهكذا نجد، إضافة إلى تعدد الحضارات، أن حضارة كل أمة ذات ثقافات متعددة، أو على الأقل ذات ثقافة بأصول متعددة وفي النتيجة تكون بوجوه متعددة.

الثقافة بجميع أوجهها، وستوقف قليلاً عند هذه العملية أو الظاهرة ولكن في الأدب تحديداً، كونها فيه ستنطبق إلى حد كبير على الكثير من حقولها أو أوجهها الأخرى. ونحن هنا قد نثير النقاش حول الظاهرة أكثر مما نشرحها.

ربط مقارنو الأدب لاسيما الفرنسيين الدراسة المقارنة بتواريخ الآداب وبالصلات التاريخية والأدبية بين الآداب القومية مشدّدين في ذلك على شرط تحقّق الصلات أو التلاقي ووقوع التأثير والتأثر فيما بينها. وكون التأثير والتأثر أحد عوامل تداخل الآداب والثقافات فإنه يعمل، بدرجة أو بأخرى، في عملية صيرورة الحضارات، كون الثقافة أحد مكونات الحضارة، كما قلنا، الأمر الذي، إضافة إلى تعددية الحضارات نفسها، يجعل من كل حضارة بحد ذاتها متعددة الثقافات، كما يجعل من الصعوبة بمكان أن نجد حضارةَ أمة نقية، إذا صح التعبير. من هنا تأتي أهمية التأثير والتأثر الثقافي وضمنه الأدبي بالطبع

أدباء البصرة يحتفون بالقاص جمعة اللامي

البصرة / رمزي حسن

احتفى أدباء ومثقفو البصرة بالقاص والروائي الكبير جمعة اللامي، في جلسة ضيفها اتحاد أدباء البصرة في قاعة محمود عبدالوهاب، وقدمه فيها القاص الرائد محمد خضير، الذي رحب بالمحتفى به مشيراً الى إنه ولد في بقعة صغيرة من العراق لكنه أصبح عالمياً مسكوناً بحب الإنسانية، وكتب نصوصا جميلة لازلنا نعيش عوالمها الباذخة الروعة .

وتساءل خضير: كيف درّب هذا الريفي خاطره على بدائع الأفكار والصعود الى أعلى، حيث كان الهم الأكبر لمصائر كائناته السردية وهو يسير بخطى حثيثة لارتقاء سلم الإبداع بعطاء لا ينضب وهو يمزج السرد بالسيرة.وشهدت الجلسة أوراقاً نقدية واحتفائية لكل من الأدباء (إحسان وفيق السامرائي، و د. سعيد الأسدي، ومحمد صالح عبدالرضا، وجابر خليفة جابر، ومقداد مسعود) تناولت جوانب مهمة من تجربة اللامي الغزيرة وأهم مجايليه، وسلطت الضوء على منجزه المتفاعل دوما مع الإنسان وهمومه وفق اشتغالات فنية مميزة، وفضاءات سردية واسعة في القصة والرواية أنتجت عددا من النصوص العابرة للأجناس.

بعدها تحدث القاص الرائد جمعة اللامي، مؤكداً بأن ما سمعه من دراسات ومشاعر تجعله يعيش حياة جديدة على الرغم من ظروفه الصحية بالغة الصعوبة، وأنه يشعر بأن مسيرته الإبداعية تكتمل بوجوده في البصرة، وهو محاط بكل مشاعر المحبة ورفاق الدرب الذين قضى معهم سني الحياة بحلوها ومرّها.

وفي ختام الجلسة قدمت فرقة (أوروا) فاصلاً موسيقياً احتفاء بضيف البصرة، وتم تكريمه بقلادة الإبداع كما قدم له رئيس اتحاد أدباء ميسان الشاعر رعد زامل درعاً، فيما كرمه منتدى أديبات البصرة بدرع آخر قدمته الشاعرة بلقيس خالد إضافة لدرع آخر من رابطة السجناء السياسيين وهدايا متنوعة لمجموعة من الحضور.

البرج العاجي

▪ فوزي كريم

البورتريت الأخير

أعمالُ الكاتب، والفنان، والموسيقي عادة ما تملي على مخيلة القارئ، والمشاهد أو المستمع، قسمات بعينها للصورة الشخصية الحية لمبدعها. وهذه الصورة التي تجمع بين تجاعيدها طبيعة المبدع، وأهوائه، وسلوكه، وحركته، والتي تنطبع في ذهن المتلقي، إنما هي من إسهام مخيلة المتلقي بالدرجة الأولى. إنه هو الذي يضع الصيغة النهائية التي يرغب بها لبورتريت المبدع، لا في الهيئة وحدها، بل في الأهواء النفسية، والسلوك، والتصرف. كتبُ "السيرة" عن المبدع، و"السيرة الذاتية" التي يكتبها عن نفسه، قد تُسعف في استكمالها، ولكنها غير كافية لزعزعتها من مخيلة المتلقي. وحدها السينما القادرة على ذلك.

يحدث هذا معي دائماً. أقرأ الشاعر نيرودا، وأرى صورته الفوتوغرافية، فأستلهم منهما طبيعةَ شخصيته في الأهواء والسلوك. ولكن ما إن أرى فيلماً سينمائياً عنه، فيه قدر من نجاح المعالجة، حتى تحتل الشخصية السينمائية شخصيته التي استلهمتُها من قصائده وفوتوغرافه. إن بورتريت الفوتوغراف يكتفي بثانية خاطفة ثابتة من شخص المبدع. وهي بالضرورة، إن لم تكن خادعة، غير وافية. بورتريت اللوحة أو النحت خلطة تجمع بصورة معقدة بين ملامح الشخصية وبين عواطف الرسام او النحات وحساسية بصره. في فنّ السينما لا يعتمد المخرج "ثانية" الفوتو الخاطفة، الثابتة إلى الأبد، بل تتجه رؤيتُه ومشاعرُه نحو خلق كيان حي في الممثل، يستعيد فيه الشخصيةَ وهي في صيرورة داخل زمانها ومكانها، بصورة تكفي لأن تترسخ في مخيلتك وذاكرتك. مازلت أتذكر بوضوح، وبفضل السينما، شخصيات بيتهوفن، شومان، برامز، تشايكوفسكي، لست، شوپان، پوتشيني، ڤاكنر دَليوس/ شيكسبير، بايرون، كيتس، ديكنسون، أليوت، ديلان توماس، لوركا، نيرودا، كَنْزبيرك/ مايكل أنجلو، كاراڤاجيو، كويا، ڤان كوخ، لوتريك، رينوار، فَريدا، موديلياني، تيرنر، أدورد مونك، بيكون.. الخ. والأفلام التي أُخرجت عنهم جيدة في معظمها، ولقد تعرضتُ للعديد منها في عمودي هذا.

في لندن اليوم فاعليتان عن جياكوميتي (١٩٠١ـ١٩٦٦)، النحات والرسام السويسري/ الفرنسي: معرض موسع في Tate modern، وفيلم جديد. لن أتعرض لمعرض جياكوميتي، فقد سبق أن فعلتُ ذلك، وسأقتصر على الفيلم، الذي يمتد لساعة ونصف، ويكاد يقتصر، في المكان، على ستوديو الفنان في باريس، وفي الزمان على بضعة أيام صرفها في رسم بورتريت لناقد فن أمريكي يُدعى "جيمس لورد"، كان في زيارة سريعة لباريس ولجياكوميتي. عنوان الفيلم "البورتريت الأخير" The Final Portrait، لأن الفنان توفي بعد بضعة أشهر من إنجازه. بالرغم من أن كلمة "إنجاز" لا ترضي جياكوميتي، لأنه يُعلن في الفيلم أكثر من مرة بأن من المستحيل إنجاز عمل فني، كما حدث مع بورتريت الناقد "لورد".

عناصرُ الفيلم إذن محدودة: جياكوميتي، لورد، دييكو (أخو الرسام الذي يكتفي بابتسامة شبه ساخرة من أخيه المولع بجلد الذات)، أنيتّي (زوجته المهُمَلة)، پويسي (عشيقته المومس الملهمة)/ ستوديو بالغ الفوضى/ لوحة بورتريت واحدة لا يتوقف الفنانَ القلق عن معاودة رسمها/ زمن محدود على مدى أسبوعين يتكرر/ ساعة ونصف فقط تحرص على أن تمنحك محصلة غنية عن طبع بالغ الغرابة.

يعتمد الفيلم حدثاً حقيقياً، كان جياكوميتي فيه قد دعى الناقد الأمريكي الشاب جيْمس لورد أن يجلس له كموديل عام ١٩٦٤. يعده أن يُتم العمل بساعات معدودة، بعدها يخبره بأنه يحتاج لأيام معدودة، ثم لأيام إضافية. وهكذا يتواصل التأجيل تحت وطأة شكه بذاته، إذْ ما أن يُتم البورتريت حتى يمحوه ساخطاً بدعوى أنه غير صالح، مكرراً على أسماع "لورد" بأن العمل الفني، أي عمل فني، لا يمكن ان ينتهي. الناقد "لورد"، عند عودته، يكتب في مذكراته كل ما حدث. كاتب السيناريو، وهو مخرج الفيلم "ستانلي توتشي"، يعتمد هذه المذكرات.

الفيلم كوميدي لأن الأهواء السائبة لجياكوميتي الانسان والفنان مليئة بالمفارقات والغرائب. والفيلم غني لأن جياكوميتي في عمله الفني، وفي ارتيابه الذاتي، واستسلامه للعبث، ولا مبالاته بشأن مردود الفن من جاه ومال، عينةٌ حية للفلسفة الوجودية التي كانت تملأ مناخ باريس آنذاك. قام بدوره الممثل البارع، المماثل في الشكل، "جيفري راش".

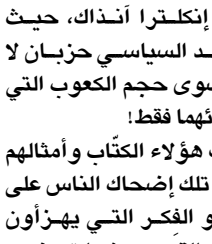

يعتمد الفيلم حدثاً حقيقياً، كان جياكوميتي فيه قد دعى الناقد الأمريكي الشاب جيْمس لورد أن يجلس له كموديل عام 1964.

الكاريكاتير في الأدب.. الكاتب يرجو إصلاح العيوب بالسخرية منها!

ترجمة: عادل العامل

يمثّل الهجاء satire تقنيةً يستخدمها الكاتب لكشف وانتقاد حماقة الفرد أو المجتمع عن طريق الدُعابة، أو التهكم، أو المبالغة، أو السخرية. والقصد منها ببساطة تحسين السلوك الإنسانيّ من خلال انتقاد ما فيه من حماقات ونقاط ضعف. ويستخدم الكاتب في الهجاء شخصيات خيالية، ترمز لأناس حقيقيين، من أجل فضح وإدانة ما يتّسمون به من فساد.

وقد يتوجّه الكاتب بالهجاء نحو شخص، أو بلد، أو حتى العالم كله. وعادةً ما يكون ذلك في قطعة هزلية من الكتابة تهزأ بالفرد أو المجتمع للكشف عمّا فيه من غباء ومواطن ضعف أو تقصير. وهو، إضافةً إلى هذا، يأمل في أن يقوم هؤلاء، الذين ينتقدهم، بتحسين سلوكياتهم عن طريق التغلب على ما لديهم من ضعف.

والهجاء والسخرية مترابطان. وتعني السخرية الاختلاف ما بين ما يقال أو يُفعل وما يُقصد به فعلياً. ولهذا يستخدم الكتّاب السخرية بشكل متكرر ليشيروا إلى النفاق والسُخف الذي يُبتلى به الأفراد والمجتمع وينتقدونهما عن طريق السخرية من ذلك.

ومعظم رسوم الكاريكاتير التي نشاهدها يومياً في الصحف والمجلات أمثلة على هذا. وهي تنتقد، بين أمور أخرى كثيرة، بعض أفعال السياسيين الراهنة بطريقة هزلية.

كما أن هناك برامج تلفزيونية تستخدم الهجاء أيضاً وتستهدف ما يراه معدّو هذه البرامج وجهات نظر سياسية واجتماعية غبية. ويمكننا الاستشهاد هنا، كمثال على ذلك، بعيّنة من الهجاء الاجتماعي الذي يقدمه الكاتب والكوميدي الأميركي ستيفن كولبرت في برنامجه "تقرير كولبرت"، حيث يقول: " إذا كانت هذه الأمة ستكون أمة مسيحية لا تساعد الفقراء، فإما أن علينا التظاهر بأن يسوع كان مجرد واحد أناني كما هي حالنا، أو أن علينا الإقرار بأنه أوصانا بأن نُحب الفقراء وأن نخدم المحتاجين من دون شرط فنعترف هكذا بأننا فقط لا نريد أن نفعل ذلك."!

وهناك الكثير من الأمثلة في هذا الإطار على الصعيد القصصي، أيضاً. فنجد الكاتب الأميركي مارك توين (١٨٠٣ ـ ١٨٩٠) في "Huckleberry Fin"، مثلاً، يستخدم الهجاء كأداة لنشر أفكاره وآرائه بشأن العبودية، والطبيعة البشرية، وقضايا أخرى كثيرة ابتلي بها المجتمع الأميركي آنذاك، كما في قوله:

["ما الفائدة من تعلّم أن تعمل بشكل صحيح، حين يكون من المزعج أن تعمل بشكل صحيح وليس هناك من مشكلة في أن تعمل بشكل خاطئ، والأجور هي نفسها بالضبط؟"]

بينما نجد الشاعر الانكليزي ألكسندر بوب (١٦٨٨ ـ ١٧٤٤) يهجو في قصيدته "اغتصاب خصلة الشَعر" الطبقة الوسطى العليا في إنكلترا القرن الثامن عشر. وينتقد غرور السيدات المتأنقات الشابات والرجال "الجنتلمان" وما تتّسم به تصرفاتهم من طيش. فيقول عن بيليندا بعد فقدانها خصلة شعرها:

[سواءٌ كانت الحورية ستخرق قانون الإلهة دايانا،
أو أن تصاب جرّةٌ صينية رقيقة بصدع،
أو تلطخ شرفها، أو رداءها المطرز الجديد."]

والبيت هنا يسحر من الطبقة المتأنقة في ذلك العصر، حيث كانت ترى الأمور التافهة مساوية للأمور المهمة. وهكذا يُصبح فقدان بليندا لفضيلتها مساوياً لتصدّع جرّة صينية.

وتُعد (أسفار غلفر) للكاتب الانكليزي الأيرلندي جوناثان سويفت (١٦٦٧ ـ ١٧٤٥) واحداً من أروع الأعمال الهجائية في الأدب الانكليزي. وسويفت يهجو هنا على نحو قاس السياسة، والدين، والثقافة الغَربية. وينتقد بسخرية لاذعة السياسة الحزبية في إنكلترا آنذاك، حيث يتنازع المشهد السياسي حزبان لا يميّز بينهما سوى حجم الكعوب التي بأحذية أعضائهما فقط!

ولم يكن هدف هؤلاء الكتّاب وأمثالهم من سخريتهم تلك إضحاك الناس على الأشخاص أو الفِكر التي يهزأون بها. فقد كان القَصد منها تسخين الرأي العام وتغيير أراء أفراده فيما يتعلق بأحوال الفساد السائدة في المجتمعات، كما جاء آنفاً.

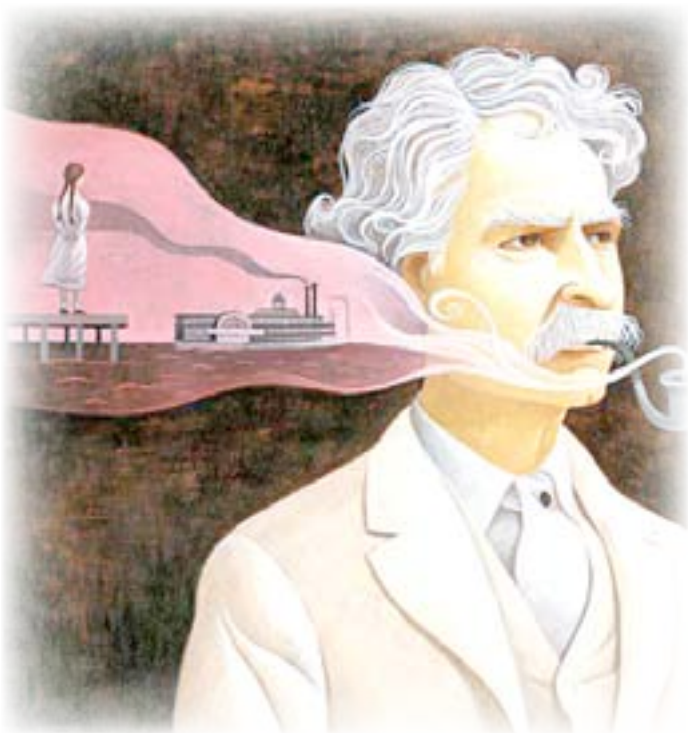

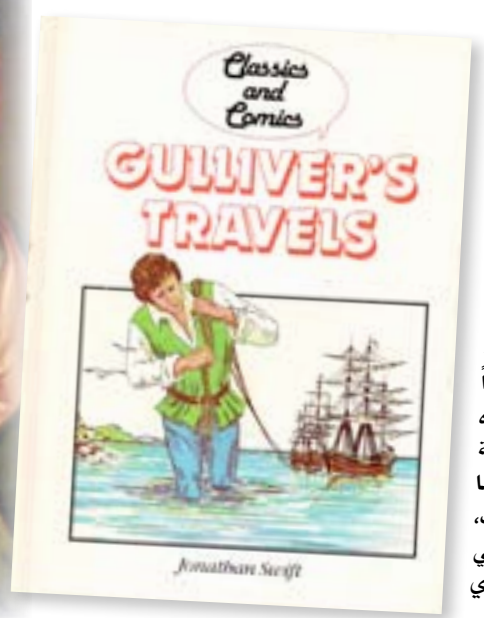

■ عن: Literary Devices